

حرب التاتشترات وإعادة صياغة الصِّراع المُسلح في السودان سيف اليزل سعد عمر

هذا المقال هو محاولة لتسليط الضوء على تأثير عربات الدفع الرباعي، المتعارف عليها بالتاتشترات، على إعادة صياغة الصراع في السودان. فكرة المقال تتلخص في ان هذه السيارات أعطت الصراع في السودان أبعاداً جديدة من أهمها ظهور مراكز قوي جديدة، توجيه ضربات عسكرية سريعة للخصوم، ترويع وإرهاب المواطنين. إمتلاك التاتشترات يعني القدرة على ممارسة سلطة شرعية أو غير شرعية، تحررية أو إجرامية، ثورية أو ارهابية.

ملاءمة وكفاءة التاتشترات:

طبيعة الارض وتضاريسها ومناخها تلعب دوراً مهماً في ميدان الحرب العسكرية. لذلك اهتمت القوي العسكرية العظمى بتصميم الآليات العسكرية لرفع أدائها وكفاءتها في ميدان الحرب والمناورة العسكرية. ومع التطور التكنولوجي والتقني الهائل والمُتسارع حدثت نقلة كبيرة في توجيه ضربات عسكرية بدقة وسرعة مُتناهية. إنعكسات هذا التطور تُشاهدنا جلية في الهجمات والضربات العسكرية التي تعرض لها السودان خلال رُبع القرن الماضي في مصنع الشفاء للأدوية، مصنع اليرموك للتصنيع الحربي، ضربات الجيش الإسرائيلي لقوافل السلاح في شرق السودان ومحاولة حركة العدل والمساواة لإستلام السلطة بكتيبة عسكرية مكونة من مئتي عربة دفع رباعي أو ما يطلق عليها اسم "التاتشترات". وهي التسمية السودانية التي أطلقت على سيارات التويوتا لاندكروزر والهيلوكس التي حُمِلت بمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة. اما التسمية المتعارف عليها عالمياً فهي "التكنيكال" والتي ابتدعها أمراء الحرب الصُومالية لمساعدة منظمات الإغاثة وفرق الإعلام والمستشارين لتوفير حماية لا تتعدي سيارة أو سيارتين ذات دفع رباعي محملة ببعض الصوماليين والأسلحة الخفيفة باعتبارها "تكنيكال اسيستنس". لقد غمرت الشركات اليابانية أسواق السيارات الإفريقية بمختلف سيارات البيك اب ذات الدفع الرباعي والتي أثبتت فعاليتها لملاءمة البيئة وتضاريس الارض في الترحال من مكان الي آخر. ماركة تويوتا على وجه التحديد كانت الأكثر قُبُولاً وانتشاراً لقوتها ومتانتها وبساطتها الميكانيكية. وهي سيارات ينطبق عليها المثل السوداني بان لديها "روح كلب" او "كديس بسبعة أرواح" لا تموت بسهولة أبداً. وهو ما حاول إثباته برنامج بريطاني يهتم بالسيارات "توب قير" والذي يُقدمه جيرمي كارلسون. ففي ثلاثة حلقات متتالية تحت عنوان كيف "تقتل التويوتا" بإغراقها في البحر، وتفجيرها مع عمارة وهي على سطحها وجرقها بالنار ما كان هذه التاتشترات العجيبة تحتاج لأكثر من شاكوش ومفك لإدارة محركها.

حرب التاتشترات حرب مكلفة واستنزفت موارد الحكومة والمعارضة المسلحة. محصلة هذا الإستنزاف والخسارة هي فقر الشعب السوداني وإهدار موارده المالية. لقد حاولت البحث عن مصادر لتكلفة التاتشترات وأرقام حول الأسعار والاستيراد الا انني لم أوفق في ذلك. ويرجع السبب، في إعتقادي، إلى أن إستيراد التاتشترات لا يُدرج تحت بند إستيراد السلاح والذي يخضع لمعاهدات وإتفاقيات تحكُمها معاهدات دولية ماعداها هو تهريب وخرق للمواثيق دولية. لكن من الواضح أن إستيراد التاتشترات يقع ضمن إستيراد السيارات للأغراض المدنية. بحساب بسيط مبنى على سعر التاتشترات الواحدة دعونا نحسب تكاليف حرب التاتشترات في السودان. إذا إفترضنا أن سعر التاتشترات الواحدة هو خمسون ألف دولار (سعر تقريبي) فإن خسارة حركة العدل والمساواة من فقدان مائتي تاتشترات خلال محاولتها الاستيلاء على السلطة في مايو ٢٠٠٨ هو عشرة ملايين دولار. هذا بالطبع غير الخسارة البشرية وقيمة الأسلحة المُحملة على تلك التاتشترات.

لقد أصبحت التاتشرات في حد ذاتها من أهم الأسلحة في المناورات والهجمات العسكرية السريعة. فقد أُطلق عليها مؤخراً بعد إستخدامها في ثورات الربيع العربي "ماكينات الحرب". وسَبَقَهَا دُورها المعروف في الحرب الصحراوية الليبية -التشادية فعُرفت الحرب باسمها او "حرب التويوتا". وهاهي تكتسب اهمية في الصراع السوداني على طوال جزام السافنا الفقيرة من أقاليم دارفور في الغرب الى أقاليم البحر الأحمر، النيل الأزرق وكسلا في الشرق. ظهور التاتشرات في هذا الحزام هو مؤشر على النقلة النوعية في الصراع في السودان بعد وصول الانقاذ للسلطة وانفصال الجنوب. فبعد ان كانت شاحنات المجروس و "الزد واي" والداف هي الأهم لوجستياً وعسكرياً في أحراش وغابات الجنوب الإستوائية، أصبحت اليوم لا قيمة لها في حرب المدن السودانية. حتي قوات الامن والاحتياط المركزي وقوات مكافحة الشغب إستبدلت تلك الشاحنات بالتاتشرات. التاتشرة عبارة عن سلاح متحرك يتم نقله بكل سهولة. فقد حُمّلت صناديقها بمختلف انواع الأسلحة من راجمات وقاذفات صواريخ ومضادات للطائرات وغيرها. حيث يتم تركيب هذه الأسلحة بكل سهولة وبايادي محلية رخيصة.

عند تفجرت الأوضاع في دارفور سيطرت رمزية الجنجويد في عقلية العالم. بأنهم مليشيات حكومية تستخدم الحصين والجمال في حركتها لترويع الأهالي. لكن دخول التاتشرات في الصراع الدارفوري قللت من رمزية الجنجويد والتي إنحصرت في مفهومها العنصري بانها قبائل عربية تعمل علي إبادة العنصر غير العربي. وبالفعل لعبة التاتشرات دورا كبيرا في زعزعة الاستقرار الدارفوري مثلما فعلت "حرب تويوتا" الحرب التشادية - الليبية في نهايات السبعينيات. اليوم ليست هناك حركة متمردة دارفورية او مليشيا قبلية لا تمتلك تاتشرات (راجع القائمة المُلحقة أدناه). بل إن الحصول على هذه التاتشرات أصبح جزءاً من الولاءات السياسية والقبلية في دارفور.

التاتشرات وتفتيت القوات السودانية المسلحة:

عَمَدَت حكومة الإنقاذ منذ اليوم الاول من إستيلائها على السُلطة إلى تفكيك القوات المسلحة وإعادة صياغتها على مبدأ الولاء الحزبي والقبلي. مستخدمةً في ذلك تجييش كافة قطاعات الشعب السوداني وتكريس الهوس الديني بالدعاوي الكاذبة المضللة عن حرب جهادية مقدسة في جنوب السودان. لقد سعت من اليوم الى خلق مليشيات موازية للجيش السوداني بقيام ما يسمى بقوات الدفاع الشعبي. وبدلاً من دعم القوات المسلحة النظامية وتأهيلها استثمرت الإنقاذ في تأهيل قوات الدفاع الشعبي وإضعاف الجيش النظامي السوداني.

ومع تفاقم الصراع في دارفور وازدياد الصراعات القبلية بسبب سياسات الإنقاذ الخاطئة تزايدت العمليات العسكرية للدفاع الشعبي لتأخذ طابع حرب العصابات، تلعب فيه سرعة الحركة والمناورة والانقضاض دوراً أساسياً ومهماً. عندها أصبحت للتاتشرات اهمية كبرى لبناء وحدات عسكرية لترويع المواطنين بدلاً من إستخدام الجيش السوداني الذي يحكمه الانضباط والذي أصبح أصلاً لايملك قدرات الحركة السريعة التي وفرتها التاتشرات لمليشيات المؤتمر الوطني. أما الحركات المسلحة المعارضة فقد وجدت في التاتشرات قوةً تسمح لها بالهجوم السريع على الجيش ومليشيات الحكومة. حتي عصابات النهب المسلح وجدت في التاتشرات ما تحتاجه من سرعة وقوة لمهاجمة الشاحنات والبصات ونهب قطعان الماشية. لقد أنتجت التاتشرات بؤراً مُتحركة من الآلة العسكرية في جميع أنحاء السودان يقودها ما تبقى من الجيش النظامي ، الدفاع الشعبي، وتشكيلات القوي الأمنية الأخرى التي أصبح لا يُعرف لها مسمأ سوي انها مليشيات لحماية النظام.

لقد أتاحت التاتشرات للحركات الدافورية والحركة الشعبية لتحرير السودان لتوجيه ضربات سريعة وقاسية لمليشيات المؤتمر الوطني. فهي إستطاعت الهجوم على النظام بعد رحلة ثلاثة ايام عبر الصحراء من حدود السودان الغربية الى أم درمان فمن السهولة إدارة معارك في معظم مدن السودان الكبرى على

الطرق المعبدة وغير المعبدة . لقد لعبت التاتشترات دورا مهما وكبيرا فى جميع العمليات العسكرية فى المدن السودانية.

لقد كثرت التاتشترات والمليشيات حتى أصبح من الصعوبة التعرف على المهاجمين إن كانوا من الجيش او مليشيات المؤتمر الوطني او مليشيات قبلية او حركة دارفور او مجموعة من قطاع الطرق. ولعله ليس هناك مثال افضل من الهجوم الذي وقع بالخطاء بين مليشيات حكومية بالقرب من مدينة الدنج فى منتصف نوفمبر الماضى. دعوات إعادة صياغة القوات المسلحة بعد سقوط الإنقاذ لا تنطلق من فراغ وللنظر ما فعلته التاتشترات فى تغيير موازين القوي فى السودان وما حولنا من دول الجوار.

التاتشترات المدنية رمزية المركز والسلطة:

قد يكون حُلم الشاب السودانى فى مناطق الهامش عربية تاتشر محملة بالسلاح للدفاع عن حقوقه وحقوق اهله المستلبة، اما حُلم الشاب من مناطق الوسط والمركز فهو تويوتا برادو مكندشة. حلم المغترب السودانى مع بداية السبعينيات كانت تويوتا هايلوكس برينسة تعينه على توفير الدخل المعيشى. لقد أنفقت حكومة الإنقاذ أموالا طائلة لشراء الآلاف من سيارات البرادو لتوزيعها على الموالين من السياسيين وزعماء القبائل وقادة الجيش السودانى والمليشيات الأخرى. أقرب مثال هي البرادو التي تربضُ فى منزل والى ولاية شمال دارفور والتي تحدث عنها أحد الصحفيين وعن مواصفاتها من زجاج واقى من الرصاص وميزات سلامة اخرى. وان هذا النوع من السيارات لا يسمح باستيراده الا بموافقة من جهات عليا لها علاقة بالملفات الأمنية . وليس مصادفة ان معظم الذين فقدوا أرواحهم من قادة الإنقاذ فى حوادث مرورية او هجمات عسكرية كانت البرادو او اللاندكروزر جزءاً من السبب. وانعدمت الضوابط والقوانين الحكومية لاستخدام التاتشترات المدنية لتنتشر الفوضى والخوف والرعب فى مدن السودان. احدي هذه الظواهر هي التاتشترات التي ليست عليها لوحات (نمرة) ولا تري من بداخلها بسبب التظليل لحماية الفساد. واهاهى التاتشترات تستخدم لقمع وقتل المتظاهرين وترويعهم. وبدلا عن سيارات الشرطة ودفاراتها المعروفة أصبحت التاتشترات ومليشياتها هي قوة ردع الإنقاذ. خطورة هذا المنهج هو التكريس لفوضى مستقبلية نري مؤشراتنا بوضوح.

للموضوع جوانب متعددة ويحتاج لدراسات وبحوث مستفيضة للخروج بالبلد من مأزق التفتت والعنف الذي تعيشه الآن. وفى ظل النظام الحاكم وسياساته المتبعة فطريق التاتشترات لن يؤدي إلى لمزيد من الفذائف والرصاص.

أدناه قائمة ليست حصرية للاشتباكات والهجمات والعمليات العسكرية التي لعبت فيها التاتشترات دورا محوريا فى النزاع فى السودان

- اشتباك عسكري قامت به الحركة الشعبية فى العباسية ٢٨ يناير ٢٠١٢
- هجوم الجبهة الثورية على مدينة رشاد ٢٤ يوليو ٢٠١٣
- هجوم مليشيات حكومية على قري بالقرب من تلودي والعباسية ٢٠ مايو ٢٠١٢
- هجوم مليشيات الحركة الشعبية على خور الدليب ٢٢ سبتمبر ٢٠١١
- الجبهة الثورية تهاجم ام روابة ٢٦ ابريل ٢٠١٣
- مليشيات المؤتمر الوطني وقوات الامن تهاجم المتظاهرين فى هبة سبتمبر ٢٠١٣
- هجوم مليشيات الحركة الشعبية على جبل الفرسان جنوب ابوزيد ١٩ يوليو ٢٠١٢
- هجوم للجبهة الثورية على دوكة وود ام بريم فى شرق السودان ٢ يونيو ٢٠١٣
- هجوم الجبهة الثورية على منطقة ام مرح الواقعة شمال شرق محلية رشاد فى ١٥ يوليو ٢٠١٣
- حركة العدل والمساواة تهاجم مدينة ابوزيد بأكثر من ٣٠ عربية تاتشر ١٧ نوفمبر ٢٠١٣
- قوات الجبهة الثورية تهاجم منطقة تبسة وتسيطر على طريق العباسية ١٥ مايو ٢٠١٣

هجوم حركتي تحرير السودان والعدل والمساواة على قافلة إمدادات عسكرية بين ثابت وأبو حمرة في جنوب دارفور ١٨ سبتمبر ٢٠١٢

هجوم الجبهة الثورية على مليشيات حكومية في ام برمبيطة ٦ مايو ٢٠١٣

قوات الجبهة الثورية تهاجم مليشيات حكومية في التروجي وحامية الأحيمر ٢٦ فبراير ٢٠١٢

هجوم الجبهة الثورية على فريق عسكري بقيادة ريس أركان الجيش السوداني خارج ابو كرشولا في ٣١ مايو ٢٠١٣

الجبهة الثورية تستولي علي ابوكرشولا بأكثر من ١٥٠ سيارة تاتشر ٢٧ ابريل ٢٠١٣

الجبهة الثورية تهاجم مدينة الدلنج ١٢ فبراير ٢٠١٣

مليشيات حكومية تهاجم المجليد في محلية كليكل ٧ نوفمبر ٢٠١٣

مليشيات قبلية تهاجم كوندبي شمال الجينية بمحلية سربا ٢٩ يناير ٢٠١٣

هجوم الجبهة الثورية على محلية ميرشنج في جنوب دارفور واشتباكات مع الجيش السوداني ٢٩ اكتوبر ٢٠١٣

مليشيات قبلية تهاجم مركز شرطة برام في جنوب دارفور وتطلق سراح معتقلين ٢٠ مارس ٢٠١٣

عمليات سطو على المسافرين على طريق نيالا برام من قبل مليشيات قبلية ٤ فبراير ٢٠١٢

مليشيات حكومية تمارس فوضى وترويع للمواطنين في مدينة تندلتي ١٣ نوفمبر ٢٠١٣

الجيش السوداني يشن هجوما على مواقع الجيش الشعبي بالدفق جنوب النيل الأزرق ١٩ يناير ٢٠١٣

الجيش السوداني يشن هجوما على حركة تحرير السودان في خور ابيشي شمال شرق مدينة نيالا

الجيش السوداني يشن هجوما على مجموعات مسلحة في قرية ام عجاجة غرب مدينة مليط بشمال دارفور ٢٢ مارس ٢٠١٣

الجيش السوداني يشن هجوما على قوات الجيش الشعبي لتحرير السودان في وادي العطرون ١١ اغسطس ٢٠٠٨

الجيش السوداني وحركة تحرير السودان تهاجمان قواعد للعدل والمساواة في جبل وانا بالقرب من الفاشر ١٨ فبراير ٢٠٠٩

استعادة هجليج بعد مناوشات مع الحركة الشعبية لتحرير السودان ١٦ ابريل ٢٠١٣

حركة تحرير السودان تصد هجوما للمليشيات الحكومة في بركة بين الفاشر وطويلة ٢٥ يونيو ٢٠١٣

اشتباكات بين حركات دارفور في مناطق حدودية بشمال دارفور ١٢ مايو ٢٠١٣

اشتباكات بين مليشيات الرزيقات والمعاليا في منطقة بخيت ١٨ سبتمبر ٢٠١٣

هجوم الجبهة الثورية على قرية حجر الدوم شرق منطقة كلوقي بولاية جنوب كردفان ٦ سبتمبر ٢٠١٢

احداث نيالا والمليشيات القبلية بقيادة دكروم ٣ يوليو ٢٠١٣

هجوم حركة العدل والمساواة واغتيال محمد بشر وسليمان اركو على الحدود السودانية التشادية ١٢ مايو ٢٠١٣

اشتباكات بين فصائل من العدل والمساواة أدت الى اغتيال صالح جربو ١٩ ابريل ٢٠١٣

هجوم العدل والمساواة على حركة تحرير السودان با ابو قمره ٣ ابريل ٢٠١٠

حركة تحرير السودان تتعرض لهجوم من الجيش ومليشيات النظام في منطقة هشابة يستشهد فيها ريس هيئة أركانها في ٢٦ ديسمبر ٢٠١٢

اشتباكات بين العدل والمساواة والجيش السوداني في جبل مون ١٤ مايو ٢٠١٠

حركة تحرير السودان تعلن تدمير حامية ام دافوق في جنوب كردفان والاستيلاء على ٥٠ سيارة تاتشر ١٧ ابريل ٢٠١٢

اشتباكات مليشيات قبلية بين القمر والبنى هلبة والاستيلاء على ٣٠ سيارة تاتشر ٢٩ مايو ٢٠١٣

اشتباكات بين الجبهة الثورية ومليشيات حكومية في ام جناح القريبة من عد الفرسان بجنوب دارفور ٢٥ يونيو ٢٠١٢

حشود عسكرية حكومية في القضارف تحسبا للهجوم متوقع من مجموعات مسلحة في شرق السودان ١٤ مايو ٢٠١٣

عربات الدفع الرباعي وحوادث السير وسط القادة السياسيين:
وفاة وزير مالية جنوب كردفان فى حادث حركة ١٣ سبتمبر ٢٠١٣
وفاة وزير الثقافة والإعلام عبد الهادي احمد عثمان فى حادث حركة ٤ اغسطس ٢٠٠٦
وفاة الدكتور مجذوب الخليفة مستشار رئيس الجمهورية فى حادث مروري فى ٢٧ يونيو ٢٠٠٧
وفاة رئيس شعبة اتحاد اصحاب وكالات السفر والسياحة فى حادث مروري ٢٢ يونيو ٢٠١٣
اصابة معتمد الرئاسة بولاية النيل الأبيض احمد ادريس الزين فى حادث مروري ٢٣ يونيو ٢٠١١